لغة الأطفال بين الفطرة والاكتساب

علي أسعد وطفة

مجلة الطفولة العربية

مجلة تربوية محكمة

تصدر عن الجمعية الكويتية للطفولة العربية

العدد 10، مارس /آذار، 2002،

صص 98–103

لغة الأطفال بين الفطرة والاكتساب

أ.د. علي أسعد وطفة
كلية التربية - جامعة الكويت

تشغل مسألة الفطري والمكتسب في اللغة اليوم اهتمام عدد كبير من المفكرين والعلماء الذين يبحثون في أصل اللغة الإنسانية وفي ماهيتها. وهم في سياق أبحاثهم هذه يستنفرون الجهد في مجال الكشف عن الأصول الأولى للغة والإبداع اللغوي ومدى تأثير الفطرة والاكتساب في تشكلها في مستوى الفرد وفي مستوى الجامعة.

كان أسلافنا القدماء يعتقدون أن اللغة أصيلة في جبلة الإنسان وفي طينته، وأن الإنسان كائن ناطق بفطرته وعاقل بتكوينه الإنساني، وكانوا يتساءلون عن اللغة التي يمكن للوليد الإنساني أن يتحدثها إذا ما أبعد عن تجربة الاتصال بالناس من حوله والاحتكاك باللغة السائدة في وسطه؟ هل يتكلم العربية أم الهندية أم الصينية أم اللاتينية؟ وكانوا يفترضون وجود لغة فطرية سامية هي هذه التي لا تتأتى بالاكتساب ولا تتشكل بالتعلم.

وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى تجربة أحد فراعنة مصر القدماء الذي حاول أن يختبر الأمر فجمع عينة من الأطفال الرضع ومنع عنهم التواصل الاجتماعي والاتصال اللغوي، ولا سيما كلام المحيطين بهم من مربيات وأمهات، ليعرف ما اللغة التي يمكنهم أن يتكلموا بها؟ ولكن يد المنية سرعان ما خطفتهم لأن استمرار الأطفال في الوجود كان دائما وأبداً مرهونا بما يحتاجون إليه من رعاية وحنان. وهذا ما تؤكده التجارب التربوية، فالحب والحنان هما نسغ الوجود الإنساني وعماده واللغة هي أداة هذا الحب وديدنه ومن غيرها كما يبدو لا يحيا الإنسان!

وتكررت هذه التجارب في بلدان أخرى وفي مراحل مختلفة من التاريخ الإنساني، وذلك كله للإجابة عن السؤال الوجودي المتعلق بماهية اللغة التي يتكلمها الإنسان قبل أن يتعرض لعملية الاكتساب اللغوي؟ ويمكن الإشارة في هذا الخصوص إلى تجربة الملك فريدريك الثاني في القرن الثاني عشر التي أجراها حول بعض الأطفال حديثي الولادة والتي انتهت إلى النتيجة عينها التي انتهى إليها الفراعنة، لقد مات الأطفال قبل أن ينطقوا كلمة واحدة لأن الحنان والحب والاتصال مع الآخرين كان بالنسبة إليهم في أهمية الغذاء والطعام.

وشاءت المصادفة التاريخية في مراحل زمنية قريبة جداً أن يتم العثور على أطفال الذئاب في غابة الإيفرون الفرنسية وفي الغابات الهندية، وهم أطفال عاشوا وترعرعوا في الغابات وفي أوكار الذئاب. كان لهؤلاء الأطفال يسلكون سلوك الذئاب من عواء ومشي على أربع وهجوم على الماشية والدجاج واستخدام الأنياب في التهام الطعام. ولم تكن المحاولات الكبيرة التي بذلت في تعليمهم مجدية حيث تعلموا بصعوبة كبيرة بعض الكلمات وبعض أنماط السلوك الإنساني كالمشي في حالة انتصاب بدلا من المشي على أقدام أربع.

ومع أهمية هذه التجارب بقي البحث عن أصل اللغة يسجل حضوره في السجلات العلمية الساخنة. حيث يذهب بعض المفكرين اليوم إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن الفصل بين المكتسب والفطري في تكوين اللغة الإنسانية، ومن هذا المنطلق يجري الجدل بين علماء نفس اللغة غالباً لتحديد الجوانب المكتسبة والجوانب الفطرية في بنية اللغة.

ومن هذا المنطلق يعتقد تشومسكي Chomsky ومساعدوه أن اكتساب اللغة مرهون إلى حد كبير بالبنى اللغوية الفطرية التي توجد في أصل الإنسان. وأن هذه البنى اللغوية الخاصة تبدأ عملها في مرحلة محددة من النضج وهي تزود الطفل بمعلومات مبرمجة مسبقاً على نحو فطري. فالطفل يولد وهو يمتلك بنى فطرية خاصة للغة وهذه البنى تنضج في سياق اللغة التي تحيطه في وسطه الثقافي والاجتماعي.

فالطفل كما يذهب تشومسكي يولد وهو مزود بقدرة فطرية خاصة على تعلم اللغة وأن هذه القدرة تميل إلى النشاط بين الشهر الأول من العمر والسنة الخامسة ثم تبدأ هذه القدرة بالضمور بعد أن تكون قد أدت الغاية من وجودها.

فجميع الأطفال وفقاً لنظرية تشومسكي يكونون القواعد اللغوية فطرياً بشكل متجانس ومدهش في الوقت نفسه. وتنطوي هذه المقولة على افتراض قوامه أن الطفل يمتلك في داخله علبة وراثية لغوية سوداء وهذه العلبة هي المعنية في بناء اللحظات الأولى للأداء اللغوي. والبنية اللغوية بالتالي تقلل من أهمية نشاط الفرد في بناء قواعد لغته كما تقلل من أهمية التأثير الذي يمارسه الوسط الاجتماعي في قابليات الأطفال اللغوية.

وعلى خلاف ذلك ينفي أنصار النزعة البيئية وجود بنى لغوية فطرية عميقة غير قابلة للملاحظة. وهم لا يعطون أية أهمية للاعتبارات الفطرية والوراثية في عملية نمو اللغة واكتسابها. فاكتساب اللغة يتم في نسق من المؤثرات الاجتماعية والتربوية. فالتأثير الاجتماعي هو الذي يمارس دوره على عملية اكتساب اللغة وذلك عبر عمليات متكررة ومستمرة وأولويات من التعميم والتعزيز الخ.

الكلمات والعبارات تعكس إلى حد كبير بنية المشاعر والانفعالات.

وتبين دراسات عدة في هذا السياق أن انخفاض مستوى الأداء اللغوي الذي يعاني منه أبناء الفئات الشعبية يعود إلى جملة الأوضاع الاجتماعية الاستلابية التي يعانون منها. فالصعوبات اللغوية كما يعتقد أنصار الترعة الاجتماعية يعود إلى شروط اكتساب اللغة التربوية والاجتماعية وليس إلى بنية اللغة الفطرية كما يزعم تشومسكي وأنصاره.

إن الاهتمام بتحليل مختلف أنماط التنشئة الاجتماعية ومختلف أشكال النمو في إطار مجتمع ما يشكل مجالا واسعاً أمام علماء النفس لإعادة طرح مسألة اللغة وشروط تكونها ونمائها. فالطفل الذي يتحدر من وسط برجوازي ليس كالطفل الذي يتحدر من بيئة عمالية من حيث القدرة على استخدام لغة جيدة في التعبير وفي الحوار.

يحاول بعض المفكرين في هذا السياق أن يفهموا الطفل في إطار انتمائه الثقافي ومن خلال دراسة نظام المواقف التي توجه سلوكه ثم اختيار التوازن اللغوي القائم والتركيز على أهمية التنوع الثقافي وأثره على حياة الأفراد وعملهم. وبالنتيجة فإنهم غالباً ما يصلون إلى النتيجة التالية وهي إن اللامساواة اللغوية التي تنشأ بين الأطفال هي نتاج للتطور النفسي والاجتماعي الذي يركز عليه علماء النفس والاجتماع. إن إنكار أهمية التنوع الثقافي ودوره في تشكل اللغة وفي تطورها يؤدي إلى الاعتقاد بأن ما يعانيه أطفال الفئات الشعبية من انخفاض في مستوى أدائه للغة هو نوع من التخلف في مستوى القدرة على التحصيل.

وعندما ننظر اليوم في نماذج بياجيه Jean Piaget لتطور الطفل معرفيا ولغويا، ولا سيما فيما يتعلق بالعمليات النفسية التي تسمح بالكشف عن فطرة النشاط اللغوي، وتساعد على إدراك مستويات النمو عند الأطفال الذين ينحدرون من مختلف الأوساط الاجتماعية، نستخلص أن أطفال الفئات الميسورة يصلون بدرجة مبكرة إلى إدراك العمليات العقلية واللغوية وفي ذلك تأكيد بعيد المدى لأهمية الوضعيات الاجتماعية في تشكل اللغة وفي تكونها.

لقد تطورت هذه النزعة الثقافية والعلمية لفطرية اللغة إلى بناء تصورات عرقية لغوية بالغة الخطورة. وقد تجلت هذه النزعة في تصورات بعض الانتروبولوجين الذين ذهبوا إلى حد القول بأن اللغة نتاج عرقي وأن مستوى لغة ما في الشكل والمضمون مرهون إلى حد كبير بمستوى العروق الإنسانية التي احتضنتها. ومن هنا يذهب بعضهم إلى تأكيد دونية بعض العروق ومحدوديتها على المستوى اللغوي أو دونية بعض اللغات قياسا على دونية العرق.

يبين جان لاكان في كثرة من أعماله أن اللاشعور الإنساني ركام من المفردات اللغوية ويتأسس على ذلك أن الإنسان كيان لغوي يتكون باللغة ومن خلالها وهذا يعني أن اللغة هنا شرط للتكون الإنساني وليس العكس كما نلاحظ عند تشومسكي وغيره. وإذا كان لا شعور الإنسان يتمثل في الخبرات والتجارب التي يعيشها الفرد، في مراحل حياته الأولى، فإن الوسط الاجتماعي يلعب دوراً فعالا في عملية تحديد السمات الأساسية للبنية اللغوية عند الأطفال بوصفها لا شعوراً.

فعلم النفس اللغوي عند جان بياجيه وتشومسكي وأنصار الوراثة وعلماء اجتماع البيولوجيا يولي أهمية كبيرة للفطرة في تحديد البنى اللغوية العميقة في النفس الإنسانية والتي لا يمكن لها أن تخضع للملاحظة. وهذه البنى اللغوية الفطرية خاصة مشتركة بين جميع الأطفال الذين يتكلمون لغة واحدة.

فالطفل في سياق التعلم اللغوي يسعى إلى تحقيق مبدأ المطابقة والتصويب بين الصوت والدلالة، وعلى أساس ذلك تتكون تراكيبه اللغوية. ويؤكد هذا المنظور أهمية نشاط الناس في نسق عملية التفاعل اللغوي التي تتم بين الطفل والوسط الذي يعيش فيه. والتفكير هنا ليس من مشتقات اللغة ولكنه نتائج التفاعل بين تصور الكائن والواقع الذي يعيش فيه وهو تفاعل تسوده البنية الفطرية بالدرجة الأولى.

ويعود إلى إميل دور كهايم E. Durkheim، من بين علماء الاجتماع، فضل السبق في النظر إلى اللغة في جوانبها الاجتماعية، ويتبدى ذلك حين يقرر بأن اللغة ظاهرة اجتماعية، أو "شيء اجتماعي" بالدرجة الأولى، وتجد رؤية دور كهايم هذه تعزيزاً لها في أفكار جون ديوي Dewey الذي ينظر إلى اللغة بوصفها نمطاً من السلوك الاجتماعي. هذا ويجمع كل من دور كهايم وديوي وساسور Saussure على أهمية العلاقة التي تربط بين اللغة والحياة الاجتماعية كما يجمعون على أهمية الشروط الاجتماعية للغة بوصفها الإطار الموضوعي لنمو اللغة وتطورها وتباينها بتباين المجتمعات الإنسانية.

ويعد برنشتاين واحداً من أهم المنتصرين لأهمية الجانب الاجتماعي في بناء اللغة وتكونها، فهو يؤكد على البنية الاجتماعية للغة وعلى أهمية الوسط الاجتماعي والتربوي في نموها وتشكلها. فاللغة بالنسبة إليه ماهية اجتماعية بالدرجة الأولى، وهو من أجل هذه الغاية يكرس جلّ أعماله لدراسة الجوانب الاجتماعية في اللغة، حيث استطاع أن يرسم ملامح نظرية متكاملة حول طبيعة العلاقة بين اللغة وجوانب الحياة الاجتماعية.

فاللغة كما يشير برنشتاين تنمو في إطار العلاقة التي تقوم بين الأطفال والآخرين عن طريق الاتصال والتعبير. وبالنتيجة فإن الشكل الذي تتعين فيه بنية اللغة أي الطريقة التي تترابط فيها

ومن أجل التأكيد في الوقت نفسه على وجود علاقة عميقة بين العرق واللغة فإنهم يزعمون أن هذه العلاقة العميقة كانت في مرحلة تاريخية بعيدة جداً (ما قبل التاريخ) وذلك في اللحظات التي تشكلت فيه العروق واللغات وذلك دون أن يبينوا لنا الحدود الفاصلة بين هذه المراحل التاريخية والمرحلة ما قبل تاريخية.

فاللغة بوصفها مرآة للشعب الذي يتكلمها تستطيع أن تعبر بكلماتها وأصواتها عن ذهنية متكلميها وذلك لأن الشعب يتوحد في لغته ويعرف بها ومن هذا المنطلق يمكن للغة أن تعيق نمو شعب ما بتأثير خصائصها وبنيتها. وبعبارة أخرى تترجم الفاقة المعجمية للغة ما الدونية العقلية لمتكلميها. فالعرق الذي تعاني لغته من فاقة لغوية يعاني هو أيضاً بالضرورة من الفاقة الفكرية. ويلاحظ أصحاب هذه النزعة أنه في سياق التطور الحضاري استطاعت العروق الأكثر أصالة وموهبة أن تصل إلى مستوى التفكير القواعدي وكل اللغات الأخرى زالت أو مازالت على طريق الزوال. حيث يذهب "هوفلاك" إلى تأكيد هذه الفكرة ويشير إلى أن لغة الهنود الأمريكيين تعاني من الذوبان والهلاك في أشكالها الحالية.

لقد أفاض انثروبولوجيو النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أبحاثهم حول أصل اللغات ومستويات تطورها. ومن هنا بدأت تشكل نظرية فطرية اللغة منطلقا موضوعياً للقول بالطابع العرقي للغات الإنسانية وهنا يكمن الخطر والتحدي الذي يواجه الإنسان المعاصر. وغني عن البيان أن المقولات التي تؤكد على أصل اللغة الوراثي وأن اللغة أيضاً مجرد موهبة عقلية تمنحها الطبيعة بعيداً عن حركة الحياة وتأثير النشاط الإنساني وإن إهمال دور الحياة الاجتماعية في بناء اللغة يشكل منطلقاً لرؤية عرقية تجعل من اللغة مجرد عطاء بيولوجي صرف.

إنه لمن الصعب علينا اليوم أن نحصي قائمة الأشكال اللغوية التي تنشأ خارج إطار المؤسسة المدرسية ففي أي مقياس ولماذا نجد معايير اللغة مختلفة عند الطبقات الاجتماعية المختلفة؟ ذلك هو السؤال الذي يجب على الدراسات والبحوث الاجتماعية أن تجيب عنه في إطار دراسة سوسيولوجية متكاملة. وفي ختام القول يترتب علينا القول بأن اللغة ظاهرة سوسيولوجية وثقافية بالدرجة الأولى وذلك مهما تكن الأبعاد الحقيقية لمقولة الأصول الفطرية للغة، ولمقولة اللغة بوصفها موهبة طبيعية وعطاء وراثي، فالأصول الاجتماعية والثقافية للغة حقيقة سوسيولوجية لا تقبل الجدل ولا يمكنها أن توضع في هامش الاعتبارات العلمية الحقة.

المراجع والهوامش:

١- علي عبد الواحد، اللغة والمجتمع، دار الكتاب العربية. القاهر، ١٩٥١.

٢- امطانيوس ميخائيل: "الاشكالات الفلسفية في فكر تشومسكي اللغوية،" المعلم العربي. السنة الثالثة والأربعون العد ١، ١٩٩٠، (صص ٢٦-٣٢).

3- Lefévre André, Essai de critique générale, étude de linguistique et philogie Paris, E.L., 1877.

4- Vinson Julian, Coup d'oeil sur l'étude de la langue basque, RLPS, Paris 1868.

5- Nélia Dias, Langues inférieures et langues supérieures, in revue de Sciences en societé: Des sciences contre l'homme, Volume 1, No.8, 1993.

6- Jean Perrot, La linguistique, Que sais-je, N 570, P.U.F, Paris, 1989.

7- "L'handdicape socio-culturel en question", E.S.F., Paris, 1981.